

جدل العلاقة بين النظر النقدي الحداثي و المتن الشعري العربي المعاصر - دراسة تأصيلية.

Controversial relationship between modernist critical consideration and contemporary Arabic poetic text - a fundamental study

أ.د. عبد القادر قدار^{1*}

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة (الجزائر)

a.keddar@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2022 / 11 / 15 - تاريخ القبول: 2022 / 12 / 08 - تاريخ النشر: 2022 / 12 / 31

ملخص:

تروم هذه الدراسة الموسومة " جدل العلاقة بين النظر النقدي الحداثي و المتن الشعري العربي المعاصر - دراسة تأصيلية " الكشف عن العلاقة الجدلية بين التفكير / التنظير النقدي الحداثي والنص الإبداعي الشعري العربي الجديد، وذلك من منطلق أن القصيدة العربية المعاصرة قد استهوت الفكر النقدي الحداثي الذي اهتم بالبحث عن طبيعة هذا الشعر المعاصر بعيدا عن مفاهيم النقد التقليدي / السياقي حيث أصبح ينظر إليه على أنه كيان لغوي مستقل. ومن هنا، يتمثل هدف هذه الدراسة البحث في جدلية العلاقة بين الممارسة النقدية الحداثية والممارسة الإبداعية الشعرية العربية المعاصرة، إلى جانب الكشف عن انعكاسات ذلك على الإجراء النقدي للنص الشعري العربي المعاصر.

كلمات مفتاحية: النظر النقدي، المتن الشعري، الشعر الجديد، النص الإبداعي، النص البحثي، النقد، الإبداع.

Abstract:

This tagged study aims at: "The controversy of the relationship between modern critical consideration and contemporary Arabic poetic valorization". An authentic study revealing the dialectical relationship between modern critical theorizing and the new Arabic creative poetry text,

on the grounds that the contemporary Arabic poem has attracted modern critical thinking, which has been interested in researching the nature of this contemporary poetry away from the concepts of traditional contextual criticism, where it has become an independent linguistic entity.

Therefore, the aim of this study is to investigate the dialectic of the relationship between modern critical practice and contemporary Arabic creative poetic practice.

Keywords: critical consideration, poetic text, new poetry, creative text, critical research text, creativity.

1. مقدمة:

أصبح النص الأدبي عامة - و الشعري الحدائي خاصة- هما يلازم القارئ و يلاحقه، و الملاحظ أن هذا الإبداع الشعري قد تجاذبته مناهج و مداخل قرائية كثيرة و مختلفة، من سياقة خارجية و نسقية داخلية، حاولت الوصول إلى قراءة إبداعية ومنتجة تقوم على المنهجية للنفاذ إليه، غير أن النص الإبداعي الشعري ظل " الحقيقة الأكثر غموضا و إشكالية بل الظاهرة التي تتأبى على النظريات والرؤى النقدية التي حاولت أسره في نمط من العلاقات و القواعد و الترميمات"²، ما يعني أن النص الأدبي أكد عجز جميع المحاولات القرائية التي ادعت أنها وحدها قادرة على فهم حقيقة النص أو امتلاكه.

من هنا، جاءت هذه الدراسة لتتنظر في طبيعة و حقيقة الظاهرة الشعرية العربية الجديدة في ضوء المنهجية النقدية ممثلة في الرؤى النقدية الحدائية، وهي رؤى داخلية مثلتها منظومة المناهج النقدية النصية التي انطلقت في فهمها للنص الشعري الجديد متجاوزة التفسيرات الخارجية المسبقة، مؤكدة أن الهدف من أي قراءة هو تحليل النص من داخله و النظر إليه باعتباره عالما مستقلا له منطق الخاص و قوانينه المستقلة، و أنه يتخلى عن الطريقة التقليدية التي تقوم على الشرح و التفسير. و تبدو لهذه المناهج أن النص، لكونه طريقة خاصة في التعبير، هو بحاجة إلى المقاربة الأسلوبية، و لكونه بنية لغوية في المقام الأول، هو بحاجة إلى مقارنة لسانية و لكونه تشكيلا مجازيا، فإنه بحاجة إلى مقارنة سيمولوجية و بنيوية و تأويلية...

من هنا، وفي إطار التفتيش التنقيب المتصل بالنقد الأدبي و إشكالية المنهج وواقع الخطاب المنقود، فإن قراءتنا الأولية المنهجية قادتنا إلى الوقوف عند مسألة واحدة من مسائل هذا المحور المهم، و هي مسألة البحث في العلاقة بين النظر النقدي و الإبداع الأدبي، أو بين النقد و الإبداع، و هنا، جدلية العلاقة بين الممارسة النقدية الحداثية و الممارسة الإبداعية الشعرية العربية الجديدة. و في اعتقادنا أن هذا الموضوع يؤسس لنفسه عبر العلاقة الحميمة بين النقد و الإبداع عموما تم صلة النظر النقدي الحداثي بالمتن الشعري المعاصر، ثم الكشف بالتالي عن انعكاسات ذلك على العملية النقدية الحداثية لذلك المتن الشعري.. و عل هذه هي أهم المحاور و القضايا التي تدور حولها هذه الدراسة.

1. في صلة النص الإبداعي بالنص النقدي البحثي:

يقودنا الكلام عن العلاقة الجدلية بين النص النقدي أو النص البحثي أو النص الشعري أو النص الإبداعي أي: صلة النقد بالإبداع - حتما- إلى تحديد و لو بصورة وجزيرة مفهوم و طبيعة كل منهما. النص الشعري معطى نصي ذاتي أي لازم قائم بذاته يعبر عن وجود في ذاته، أما النص النقدي فهو قراءة للنص الشعري و تقدم مناسب له، يتطلع إلى معرفته باستشفاف جوانبه الإبداعية و الدلالية، إذا، من الطبيعي أن ينظر إلى الأدب و النقد على أنهما صنوان متلازمان و نشاطان متكاملان لا غنى لأحدهما عن الآخر، أو كما قال صالح هويدي: " فالنقد صنو الأدب و جناحه الإبداعي الثاني"³.

و الحاصل أن النقد - كمنشأ ثان على نشاط أول (الإبداع الأدبي) أو إبداع ثان لإبداع أول، أو لغة ثانية على لغة أولى، أو كلام لاحق على كلام سابق- لا ينفصل عن الأدب موضوع النقد و ميدانه الذي يعمل فيه.. الأدب عملية خلق و إبداع، و النقد هو الذي يستكشف إبداع الأدب أو اتباعه (تقليده) و هو (النقد) متصل بالأدب يستمد منه وجوده و يسير في ظله راصدا خطاه و اتجاهاته. و إذا كان النص الأدبي يتسم بالثبات، فإن النص النقدي يتميز بتغير مقارباته و تجددها، و النصوص الجمالية تبقى منطوية على أسرارها تنتظر من يحسن استدراجها و استيلاها مكنوناتها، و ذلك لأنها لا تبوح إلا لمن يحسن استنطاقها، لذا فالنقد: " يرتبط بالبحث عن إمكانية التجربة الأدبية"⁴.

يعد خطاب النقد، لغة ثانية على لغة أولى اسمها الأدب، مهمتها الاكتفاء بوصف العمل الأدبي، أي الامتناع عن ضمن لغة مفهومية قوامها المفاهيم بكيفية أساس، وهذا وفق منهج باعتباره نسقا لأدوات المفاهيمية المستثمرة لإنتاج معرفة بالأدب. وهكذا، يبرز النص البحثي الشعري، كنص تفاعلي بامتياز، تقوم بينهما علاقة جدلية إيجابية، يسعى كل منهما للإجابة عن أسئلة الآخر. على أن النص البحثي الذي يبحث في التحقق الإبداعي يشترط النص الشعري باعتباره "موضوعا" أولا، "فالنقد عبارة عن فعل نصي فاعل يتم اختراق ظاهر الكلام الذي يتكلمه النص إلى باطنه، لاستشفاف ما يتكلم النص داخليا و خارجيا"⁵.

و عليه، ارتبطت الممارسة النقدية بالممارسة الإبداعية التي تحتاج إلى ذات ناقدة واعية لاستكشاف اتجاهات دلالية ذات عناصر نصية استنادا إلى سلطة و معرفة أو قانون قاعدي ذي ضابط معرفي تمتلكه العملية النقدية مما يمكنه من فك الارتباط بين الدوال و المدلولات: البنية العميقة و البنية السطحية. مع الإشارة هنا إلى أن النص الأدبي لن تتأتى له هذه الخطوة القرائية/ النقدية إلا إذا كان قادرا على التخلق في كل تحقق قرائي⁶، منفتحا على كل اللحظات القرائية، انفتاحا لا متناها أديا، و لا يتيح له ذلك إلا غناه و تنوعه الذي يستدعي مواجهة قرائية خاصة قائمة على كل الاستعداد الذهني و الثقافي و الحضاري للمتلقي الناقد، و مرد هذه المواجهة/ المغامرة القرائية إلى حقيقة مؤداها أن الفنان، و منه الشاعر، مغامر من طراز رفيع، و تجسد حدثه- التي هي أقصى مغامرته- فعلا اختراقيا، تتطلب مغامرة نقدية حوابة في عوالم النص الجمالية العميقة والثرية بالوسائل الفريدة المكونة للنص. هذا ما يجعل من النقد عملا خلاقا يسحب النص كشبكة معقدة من الأسئلة الجمالية المتداخلة التي تحتاج إلى مغامرة من نوع فريد لإجراء حوار سري معها لفك رموزها و تشابكها و تعقيدها و غموضها، و لا بد لهذا الحوار من عقل نقدي مجرب و مغامر، قادر على التأويل يمتلك منهجا خاصا و فلسفة خاصة يواجه بها النص الشعري المعاصر بمختلف آفاق التشكيلية.

1.2 في جدول العلاقة بين النص الشعري العربي الجديد و النص النقدي المعاصر:

يعد النص الشعري المعاصر من أبرز الضرورات الفنية وأشدها إلحاحا، نظرا لما يحتويه من مشكلات نصية إبداعية ذات قدرة على إثارة القارئ و استفزازه، بل و ذات قدرة كذلك على تجلية الفعل الشعري النوعي الذي من سماته اختراق المؤلف و النمطي، و إعادة تشكيل المختلف و المتباين في إطار وحدة متجانسة و متصالحة يعكسها الذي يوفر مناخا من الحرية صالحا للخلق و الإبداع، هنا تكمن أهمية العمل الفني من خلال الإمكانيات التي يخلقها للحوار بين الفنان و عمله الفني⁷، أو بين المتلقي و العمل الفني أو بين المتلقي و الفنان.

نحاول الحديث فيما يأتي، و في ضوء تحديدنا لضوابط صلة النص النقدي بالنص الإبداعي، عن جدل العلاقة بين النص الشعري العربي الجديد و النص النقدي المعاصر مشيرين بدءا إلى طبيعة الوضع الحياتي العربي الجديد الذي أفرز تحولا مجتمعيا جديدا، على المستويين الفردي و الجماعي، مما استوجب تجديد النظر في العالم و أشيائه، و بضمن هذا أثر التحولات الحياتية في التعبير الشعري و معه تغير آليات تناول الفن الشعري الجديد و قراءاته.

كان من الطبيعي أن تشهد الحقبة الزمنية مظاهر إعادة النظر في الجوانب النظرية تماشيا مع التطور السريع، نعني بهذا وجود مظاهر- على مستوى التنظير و النقد الأدبيين- تدل على ظهور نظرة جديدة للأدب تنشده الدراسة العقلية للأعمال الأدبية من أبرزها ما يميزها تحليل الأدب تحليلا يعزله عن الواقع الحياتي و ملابساته يعني ذلك أن الدراسات الأدبية المعاصرة عرفت مولد نظرة علمية جديدة للظاهرة الأدبية حيث أعلن المنظور النقدي المعاصر عن موضوعية صارمة تتناسب مع روح العصر. و هذا دليل على أن مناهج النقد الأدبي الجديدة التي تبنت منطلقا جديدا إنما ظهرت بسبب ظهور التطورات الجديدة في الحياة الاجتماعية، و هو ظهور إلى تجديد في الفن و الأدب، و هذا يفرض على الباحث أو الناقد نظرة جديدة تسمح له بالتكيف مع الواقع الأدبي الجديد⁸.

و منه رامت مناهج الدراسة الأدبية الجديدة الانتظام و التجريبية و العلمية الصارمة باعتناق مفاهيم الفكر العلمي الحديث مما حصر اهتمامها في التحليل و التفاسير العقلية بدل الانصياع لشطحات تذوق الأثر و متعته الجمالية، و بدل قصورها في دراستها للأدب على أسبابه الواقعية أو التكوينية و

مصادره، و هذه دراسة عرضية للنص أكثر منها جوهرية لا تحفل بملامح النص الأدبي ذاته لأنها تتجاهل المسائل المتعلقة بقيمة الأدب أو خصائصه المتميزة... و بالجملة، حاولت مناهج الدراسات الجديدة معارضة الدراسات التقليدية التي تنهج الطريقة الوقائية أو التاريخية فتتعامل مع الكائن الأدبي معاملة مختلف أنماط الوثيقة التاريخية حتى و إن اعتقدت أن الأثر الأدبي ذو أهمية خاصة، من هنا تحول الاهتمام النقدي من قطب المؤلف و الواقع الخارجي و التاريخ و المجتمع إلى قطب النص ذاته، و حول هذا يؤكد " ت.س إليوت " إن تحويل الاهتمام من الشاعر إلى الشعر هدف جدير بالثناء"⁹.

حظيت حركة التعبير الشعري الجديدة بأهمية قصوى في القراءة النقدية الحديثة التي تسلحت بشبكة من الأدوات و الآليات التي نمت في أحضان الرؤية الجديدة لمناهج النقد الحدائي الذي واكب حركة التجديد الإبداعية في مجال الشعر الذي كثف من وقع الصدمة و طرح أمام القارئ إشكالات أخرى، و أدخله في مغامرة جديدة مع النقد و الإبداع ليتربى لديه الحس الجديد و التذوق الفني الذي يتيح له الانفتاح على هذا النص الشعري دون نفور منه.

حاول النص الشعري المعاصر - وفق مفهوم الكتابة الجديدة- خلق نظامه التعبيري مستقلا بسياقه محاولا التجذر في واقع الإبداع مع مخالفته الكتابة التقليدية مستفيدا من الأفكار و المفاهيم النقدية التي أسست لمفهوم الكتابة الإبداعية الجديدة من هنا بادر الخطاب النقدي الجديد -تنظيرا و إجراء- إلى احتضان التساؤلات النقدية الجديدة التي أحدثها سياق النص الشعري الجديد لدى القارئ، احتضنها بآراء و مفاهيم و مقاربات نقدية مغايرة لأطروحات النقد المتوارث¹⁰ ، بتحديد رؤاها و نظراتها و مرجعياتها مع انفتاحها على حركة النقد العالمي بمدارسه المختلفة.

كان على النقد الحدائي أن يغير آلياته القرائية و سلطته المعرفية لمواكبة الفعل الشعري الجديد في ضوء ما اصطلح على تسميته بالكتابة الجديدة كمصطلح معبر عن واقع تطور النشاط الشعري العربي الحديث، هذه الكتابة الجديدة التي خرجت إلى وظائف جديدة خارجة عن القانون، و متمردة على صيغ الإقفال و الحصر و التقييد التي تحد من فاعلية الحرية في فسخ المجال الحيوي الإبداعي الخلاق أمام انبثاق النص الشعري و تجلياته...

هي محاولة هدم منظومات الذائقة التقليدية في التلقي الشعري و تجاوز رؤيتها الجمالية الموروثة استكمالاً لإيجاد عالمها الشعري الجديد، لذلك، فإن من أبرز سماتها إنتاج صور صادمة للذوق لأنها " بحث و تجربة و ممارسة تفضي إلى وضع شعري مغاير ينتج نوعية جديدة"¹¹.

يمكن القول نتيجة لذلك، إن الكتابة الجديدة مجال حقيقي لتصارع النماذج و الأنماط من شأنها مجاهدة سكونية النمطية و استقرارها بخلخلة سيادة الوعي الشعري السائد و هيمنة ثوابته في إطار خلق أفق جمالي في أعراف التلقي الكائنة. لذا فهي نقيض الوعي الشعري الموروث المتداول باعتبارها رؤية أو حساسية مغايرة بفعل وعيها النقدي كأساس لإعادة بناء اللغة و الذات و المجتمع، و يكون الشعر كلاماً في الكلام و صناعة أي تركيباً لأنساق لغوية متقطعة من الكلام اليومي و كلام الفكر بأن تفسح المجال للشاعر بأن يتصرف باللغة في ضوء ما تقتضيه طبيعة تجربته وصولاً باللغة صوب وظائف إبداعية جديدة بعيداً عن الوظائف السائدة و المكرورة.

لما كان النص الشعري الجديد شبكة معقدة من الأمثلة الجمالية المتداخلة التي فرضتها تحولات الحياة الموضوعية، و لما كان النقد عملية تعنى بإنتاج النصوص ذات طبيعة أدبية و تتناول النصوص الإبداعية كموضوع للدرس، فإنه لابد من التأكيد على القول بضرورة مواكبة النقد لحرحة التحديث الشعري لأجل استيعاب النقلة التاريخية و ذلك باعتبار أن التجربة النقدية هي في الأساس وليدة خبرتنا بالأدب، بمعنى أنها نتيجة علاقتنا المباشرة الخاصة و العامة بالحياة الأدبية. ووفق خبرتنا الخاصة بالأدب تبني عملية تأسيسنا للمفاهيمية النقدية أو منظورنا الخاص.

و إذا كان النص الإبداعي يعرف تغيرات و تطورات في بنيته و أنساقه، فإن مراجعة دائمة لأدواتنا و إمكانياتنا لجهازنا الأدوات المفهوماتي المعرفي بمعنى أن تطور بنية الأدب يتطلب منا ضرورة مراجعة أدوات قراءته و فهمه، فكلما شعرنا بحصول تطور في الأدب يكون سبباً في تعرضه لهزات عنيفة تفقده بعض خصائصه أو تسقط عنه بعضها، أو تضيف إليه عناصر جديدة، ذلك باعتبار أن الأديب لا يتقيد بنماذج و أساليب تعبيرية لقدرة على الابتكار مما يفرض على الناقد إعادة النظر في وسائل قراءته للنصوص الإبداعية، أو كما قال المسدي: " أما الحداثة في الصياغة فتتحدد بمدى قدرة الأديب على

ابتكار أسلوبه الأدائي مما لا يتقيد بأنماط سائدة و لا معايير مطردة، فينحرف سلم المقاييس بما يهتك حواجز النقد فيذعنه إليه و عندئذ يصبح للأديب سلطان على الناقد في حمله على مراجعة ضوابطه كلما تمرد النص الإبداعي على تصنيفات النقد¹².

يحتاج التجديد الشعري العربي إلى لغة تتفهم الصراع الأدبي و تحويه، يحتاج إلى نقد جديد يكشف عن الأبعاد و الخصائص الفنية واللغوية والفكرية في النص الشعري الإبداعي الذي ينتمي إلى عصرنا انطلاقاً من أن لكل إبداع جديد تقويماً جديداً، و لكل رؤية فهماً جديداً، و باعتبار أن "النقد في عمومه هو تصور ما عن الشعر، و ما الشعر في ذلك سوى صورة من هذه الصور"¹³. مؤدى ذلك، إن الانقلاب الحاصل في فهم الحداثة الشعرية العربية أدى إلى انقلاب مماثل في نقد هذه الحداثة، فالمعالجة النقدية المستحدثة تتطلبها كل من الحدث الإبداعي و الجديد الإنشائي اللذين أديا إلى تعديل شبكة العلاقات الموضوعية و الجمالية كما كان موجوداً من قبل. و إذا كان نمو الشعر مظهرًا من مظاهر التغيير الحياتي و الاجتماعي فإن نمو النقد ملمح من ملامح نمو الشعر و تطوره مما يعني أن اللحظة التي يظهر فيها النقد كمنشأ معرفي مستقل هي تلك اللحظة التي لا يصبح الشعر فيها تعبيراً عن عقل الشعب كله.

استوجب هذا الإنتاج الشعري العربي المتطور في أساليبه و أشكاله الفنية لتعاطيه المغامرة الشكلية، من النقاد النظر إليه بأداة نقدية كفيلة بمعالجة هذه الأشكال البالغة التعقيد. من هنا، يكون سؤال الحداثة في النقد تالياً لسؤال الحداثة في الإبداع الأدبي نظراً لأن الأدب كنص إبداعي يكون موضوعاً للنقد أي موضوع فهم و تقويم و تلق، و بهذا نقول مع صلاح فضل: "إن المبادئ النقدية الحديثة (...) ينبغي أن تنبثق من الفن الذي تعالجه و أول ما يجب على الناقد أن يفعله أن يقرأ الأدب، أن يجري بحثاً استنباطياً لحقله الخاص، و يدع لمبادئه النقدية أن تكون نفسها بمعرفة هذا الحقل"¹⁴. تبعاً لذلك، نتبين أن الأدب بإنجازاته قفزات نوعية بمقتضى عوامل تاريخية ضاغطة يقدم لنا مضموناً ثائراً سالكا قلباً فنياً مستحدثاً ينتج عنه تجدد المعنى و تفجر المبني، و عندئذ، فإن على النقد مواكبة الإبداع الأدبي بمراجعة مفاهيمه و مقولاته و إلا انقطع عن الحداثة النصية و فقد - بالتالي - علة وجوده، و إذا أراد الخطاب النقدي الإمساك بأسرار

" شعرية" النص الأدبي الجديد عند استقصائه خصائص النص الفنية أن يكون حاملا في ذاته أدنى حد من " الإبداعية" مما يمكنه من خلق وظيفة جديدة في اللغة يكون مدارها أدبية الخطاب الأدبي.

إن الحداثة الأدبية المتضمنة في النصوص الإبداعية هي التي تفسح المجال للتظير الأدبي و تتيح للنقد أن يؤصل لأفق الحداثة. إذا، وجب على النقد أن يغير نفسه و يبدل مواقفه ليتقرى حالة التوتر و التساؤل و الصدام بين الأنساق السائدة حتى يتسم بالحداثة، و عليه ملامسة الحداثة في الفعل الإبداعي الأدبي، و على هذا النقد الجديد " أن يتعامل مع النص الشعري الجديد باعتباره تعبيرا عن تغير جوهري لا تعبيرا عن حالة شكلية طارئة. و إذا كان هم النقد التقليدي مقصورا على البحث عن الأصول فإن هم النقد المعاصر يتمثل في تأسيس أصول نقدية جديدة مع امتلاك الكفاءة الفنية الجمالية صوب القصيدة...¹⁵

تشتترط حداثة النقد تمثل هذا النقد حداثة موضوعه (النص الأدبي) مع مخالفة النقد السابق باكتساء مقولات و مصطلحات و تصورات و معايير جديدة، من هنا تكون الحداثة في النقد الأدبي الجديد مقولة تصورية أو أداة منهجية و إجرائية، يستخدمها الناقد في سعيه لإدراك حقائق الظاهرة الأدبية و قضاياها و عناصرها، و هي العدول عن النمط السائد و المعيار المطرد، فهي تجديد للرؤية و تغيير للمطرد، و تتحقق الحداثة النقدية هذه على مستويين¹⁶، مستوى المضمون (تجديد النقد لمقولاته التي يصدر عنها أي تجديد نظامه المفهومي) و مستوى الصياغة (تجديد لغته أي مصطلحاته بمقتضى تحديد مفاهيمه)

يعد هذا إشارة واضحة إلى أن حداثة النقد تعني التخلص من أوهام القوانين السائدة أو التصورات الآلية يجعل حداثة الأدب و الفن مرتبطة بزمن اللحظة الراهنة، أو هي مخالفة و مغايرة لأعراف الأدب و سننه القديمة عن طريق اختراع مضامين مناسبة لإنجازات العصر، و لكون الحداثة النقدية اكتشافا لمسائل الأدب الجديدة الخاصة، فإنها أصبحت شغل الفكر النقدي و بالتالي كان القصد منها الجديد و التجديد¹⁷، الأمر الذي برر دخول مناهج نقدية جديدة، و مؤدى هذا أن الحداثة النقدية لا ينبغي فصلها

عن الحدائة الشعرية، فإذا كانت المتغيرات الفنية بالنسبة للفنان تتمثل في أدواته، فإن أدوات النقد في تناوله للفن الحديث هي الأخرى يجب أن تتغير تبعاً لتغير أدوات الفنان¹⁸.

استقطبت التجربة الشعرية العربية المعاصرة التي عرفت رواجاً كبيراً اهتمام الكثير من النقاد و الدارسين بسبب قضية التحديث الشعري التي أصبحت قضية نقدية و بخلاف النقد القديم الذي انحصر اهتمامه في الدفاع عن أصول عمود الشعر، صار النقد العربي الحدائي يدعو إلى ضرورة التفرد و التميز... و بالتالي، غدت قضية التحديث قضية النقد بقدر ما هي قضية الشعر المعاصر، نتيجة لذلك، حاول النقد الحدائي اقتحام ساحة النص الداخلية حتى لا يضل السبيل القويم إلى الرؤية النقدية السليمة، كان عليه أن يتجه إلى النص الشعري ليقراه قراءة محدثة تتناسب و مستويات هذا النص، باعتبار أن كل خطاب نقدي - أي كل حديث له صلة و بالأدب - ينطلق من مفهوم ما عن الأدب، على أن المقصود بهذا المصطلح " مفهوم الأدب " كما يرى "قيردا سدونك"، هو " مجموعة من التوصيفات لخصائص يعتقد أنها متأصلة في كل النصوص الأدبية أو في بعض منها"¹⁹، و إن ليس هناك معايير تسمح بتطبيق واضح وضوحاً تاماً لمفهوم من مفاهيم للأدب عن نص ما، فالباحثون و النقاد يستخدمون وسائل جدال بعينها ليبررو أحكامهم عن الأدب، هذه الأحكام مشتقة من مفاهيم للأدب.

توصف مفاهيم الأدب بأنها أطر للإدراك النقدي حيث يقوم كل خطاب نقدي عن النصوص الأدبية على أساس من مفاهيم الأدب: أي نظم المعايير التي تعطي الناقد إشارات مقتضبة عن الخصائص التي ينبغي أن تتوافر في النصوص الأدبية. بعبارة أخرى، يتعامل النشاط النقدي الحدائي مع المعطى الحدائي لإضاءته و تحليله، فيكون النص في هذه المقاربة نقطة البدء و المنتهى، و يكون بالتالي، حقلاً للاختبار العلمي الصارم. و من هنا يمثل النص الأدبي " مصدراً خصباً للحوار النقدي الحديث، فهو تحد دائم و إشكالية ترجو البيان في جدلية العلاقة بين مقولات المناهج النقدية الحديثة"²⁰.

تأسست الرؤية النقدية المعاصرة وفق هذه التحديدات و التصورات بلورتها مناهج النقد المعاصر معبرة عن لحظة منهجية نقدية جديدة شكلت تحولاً تحديثياً يعنى بدراسة الماهية و التشكيل النصيين، على أن هذا التحول لم ينطلق من فراغ فقد كان مقترناً بتغير الأنساق و البنى الشعرية، مما استلزم أن هذا المسعى

هو ما أدى بالباحثين إلى وسم "الشعرية" بأنها لغوية، علما بأن نمو بحوث الشعرية و نشاطها و تزايدها ترتب عن تحولات النظرية اللغوية الحديثة من جهة، و عن تضافر الأفكار الجمالية المنبثقة من التجربة الخصبه للمذاهب الأدبية و المناهج البحثية من ناحية أخرى، و تطلب هذا الأمر من أية قراءة نقدية علمية أن تركز على اللغة أو تتأسس عليها باعتبارها (اللغة): "أهم متغير مناسب لطبيعته و من ثم فإن نظرية اللغة و ما يعترها من تحولات تقع في ذروة النسق المعرفي المتصل بالبلاغة والأدب"²¹.

تمكن النقد المعاصر بهذا المنظور من تحرير المسار النقدي من إفسار المؤلف الذي كان فيما مضى شريك الناقد الأول في تخليق التيار الفكري و المذهبي بل كان هو الذي يملي عليه مبادئه، و يضع له المنظومة المذهبية في أعمال أدبية كبرى تكون مهمة الناقد تحريرها... خلاف ذلك كانت السمة الغالبة على النقد المعاصر استقلاله الفكري عن الأدب، حيث أصبح النص مجرد مادة يجرب عليها الناقد أدواته و إجراءاته التحليلية، دون أن يستخرج منها مكوناته النظرية و الفكرية. فالتحول الجذري الذي عرفه النقد منذ هذا التاريخ، يتركز في استقلاله المنهجي عن النص الإبداعي، و اعتماده على معطيات تحليلية و منطلقات علمية.

أصبح البحث في شعرية القول اليوم من أهم المشكلات الأدبية و أبرزها بفعل الكشوفات الجديدة التي حققتها العلوم اللسانية الحديثة خاصة العلاقة شديدة الخصوصية بين الشعر و اللغة، خصوصا إذا فهمنا أن الشعر فن قولي متعال في اللغة قوامه الاستخدام الاستثنائي الخلاق والخاص للغة، على أن البحث في شعرية القول لا يتأني إلا عبر الاشتغال على النص بوصفه بنية لسانية مستقلة بذاتها يتركز تحليله في استيعاب المنظومات و فعاليتها خارج الحدود المألوفة مع تفادي التركيز حول المعنى بوصفه هدفا للنص. إن ضرورة اتجاه النقد إلى النص داخليا هو أساس الرؤية النقدية السليمة من منطلق أن "الحداثة الشعرية ظاهرة لا تقوم من خلال القواعد والنواميس الأدبية وإنما تدرس من خلال نصوصها الشعرية.. لأن النص الشعري هو المادة الوحيدة التي تتجلى فيها كل النوازع الحداثوية، رؤيا و مواقف و أشكالا فنية و طرقا تعبيرية"²².

يدلنا ذلك على أن المقتربات النقدية الحديثة و التي أنتجتها الاشتغال على الدراسات اللغوية الجديدة قدمت لنا بديلا إجرائيا للأحكام القيمية، ممثلا في مفهوم الوصف الذي يضبط مهمة الناقد و يجعلها مكتبية بالنظر إلى النص بوصفه بنية لغوية و توصيفه وفق تشكل نسق علاقاته و أنماط رموز و موضوعاته... هنا يتجاني الناقد عن أحكام القيمة، سالكا بدل ذلك أدوات الوصف و التحليل و الكشف عن نمط العلاقات التي تنتظم بنية النص، أو الألفاظ و الرموز التي تؤلف نسيجه.

أصبح ما يهم الناقد في النص الشعري ليس ما يقوله هذا النص و إنما الطريقة التي يقوله بها فطريقة القول تصبح جزءا جوهريا و عنصرا مكونا للقول الشعري ذاته. إن عمل النقد المعاصر محصور في التعرف على وحدات النص مع اكتشاف القانون الذي ينتظمها، و هو ما يجعلنا نقر مع صلاح فضل أن " العملية النقدية ليست تطبيقا آليا لمنهج مرسوم، و لا تنظيما عقليا لمقدمات تحددت نتائجها سلفا، و لا تبريرا مزيئا لأحكام تعسفية و إنما هي مغامرة محسوبة و محاولة منظمة لاكتشاف عالم النص الأدبي و القوانين التي تحكم حركته"²³.

تحاول النظرية النقدية المعاصرة تجاوز النظرية النقدية التقليدية التي لا تهتم بالنص إلا قليلا و لا ترى فيه إلا وثيقة لتمرير رسالة معينة هي -غالبا- رسالة اجتماعية أو سياسية... هنا يحتل النص الأدبي مرتبة ثانية و يصبح وسيلة لا غاية و الهدف منه إعطاء نصائح و عظية لا البحث في مكونات النص و طرائق تسجيل الحدث، و الواقع أن النقد الذي يتركز اهتمامه قبل كل شيء على البنية النصية بإمكانه أن يحيط بكل أطراف العملية الإبداعية فيكشف لنا عن طبيعته و أسرار تميزه عن أية رسالة لفظية أخرى، و من الطبيعي - وفق هذه الرؤية- القول، إن العلاقة الجامعة بين النقد و النص الأدبي إنما هي النص الأدبي ذاته. و بعد هذا يمكننا القول، إن من أولويات هذا النقد، كما يرى حسين خمري²⁴: التساؤل عن الكيفية التي طرحت بها المواضيع و ما هي السياقات المرتبطة بذلك، أي أنه يجب كشف الطريقة التي قدمت بها مضامين النص الأدبي و طرائق تشكيلها، و كذا فحص اللغة في التعبير... أي إعطاء الصدارة للنص ثم السياقات ثم المحيط الثقافي.

2.2 من تجليات التفاعل بين النظر النقدي الحدائي و التمن الشعري:

من خلال فحصنا للعلاقة بين النص الشعري العربي الجديد و الممارسة النقدية الحداثية توصلنا إلى جملة من النتائج نذكرها كآآتي:

- استهوت القصيدة العربية المعاصرة- باعتبارها إمكانات إبداعية هائلة- الممارسة النقدية الحداثية، فالنص الشعري العربي الجديد عرف -إبداعيا- طورا انتقاليا، و هو ما جعل العملية النقدية تتبوأ بمختلف مناهج النقد الأدبي الغربية الجديدة بحكم أنها نتاج واقع متقدم و متطور، و تبعا لذلك، فإنه ليس غريبا أن يتأثر أدبنا العربي - و النص الشعري المعاصر خاصة- بالنظريات النقدية الوافدة بحجة تجديد الفن الشعري.

- و الحاصل من ذلك، إن النقد العربي المعاصر -في مجمله- كان حصيلة تأثر بالنقد الغربي، و هذا التأثير كان بدافع الحداثة، الأمر الذي يعني أن هذا النقد العربي الجديد قد عاش على واقع مصطنع، بمعنى أن حركة النقد العربي الحداثي أفرزت اتجاهات نقدية متعالية على واقع النص الشعري و خصوصيته، فكان بنية فاقدة لشرعية ولادته، لأنها - في حقيقته-، ليست إلا تجليا لواقع الأدب الغربي و كشفا لواقع تشكله. فالخطاب النقدي العربي الحداثي محكوم- في وجودية و استمراره. بخطاب الآخر أكثر مما هو محكوم آلية عمله الداخلية و بتحويلات الحساسية الجمالية و متغير عناصر الشعرية في واقع نصوصه.

- و خلافا للنظرية النقدية العربية القديمة التي كانت خلاصة لقراءة النقاد العرب القدامى للتجارب الإبداعية العربية، و باعتبار أن العلاقة بين النظرية النقدية و الإبداع هي علاقة تفاعل و تأثير متبادل، و أن النظرية النقدية هي نتاج للشروط و الملابس التاريخية لأي مجتمع، و نظرا لأنه لا يمكن فصل الأدب عبر مرجعياته التاريخية و الإنسانية كونه تعبيرا عن حاجيات الإنسان و قضاياها الكبرى فإنه من العبث فصل النظرية النقدية عن موضوعا الإبداعي في أطره الحضارية و الجمالية. خلافا لذلك، جاءت النظرية النقدية العربية المعاصرة ممثلة لثقافة الآخر، الغرب و معطياته الفكرية فكانت بالتالي ذات نزعة طفيلية و بإضفائها صفة الغيرية على خطابها النقدي... و الأكثر من ذلك إن علاقتها بالفكر النقدي الغربي لم يقم على أساس الحوار

المنهجي، لأنها اكتفت بالإفادة من المنجز الغربي في شكله النهائي و نقله إلى بيئتنا الثقافية و الأدبية و النقدية دون فهم دقيق و تمثل واع للنموذج الأصلي.

- كان من نتائج ذلك، إعطاء النقاد العرب المعاصرين الأولوية للمنهج الاجتماعية حيث بالغت في تصوير دور اللغة و طمست إلى حد كبير العوامل الموضوعية... و من هنا اكتفى النقد العربي المعاصر بالتنظير لأدبية النص الشعري و ألغى وظائفه، تقوقع داخل اللغة و ابتعد عن قضايا المجتمع و هوممه، و تحول الخطاب النقدي إلى لغة فارغة المحتوى، تملوه الرتابة ويسمه الغموض، مما أفسح المجال لسلطة اللغة، و أدى ذلك إلى عدم التزام الناقد بمقتصدية الشاعر و القصيدة، كما أصبح الخطاب النقدي عملاً غير حيادي قد أغفل دور المبدع الشاعر و النص كذلك، و بالتالي عجزه عند دوره الحقيقي في توجيه المجتمع، و عدم تمكنه من تغيير بنية الجمالية و الإيقاعية.. و ما ينبغي التأكيد عليه - هنا- هو أن اللغة- وحدها- لا يمكنها أن تكون الإطار المرجعي ما لم يكن هناك متلق يضيفي الشرعية على العمل الشعري و يمنحه مكانته النفعية.

- إذا، و تأسيسها على ما سبق فإن المهمة الأساسية المنوطة على الخطاب النقدي العربي المعاصر - في تنظيره للنص الشعري العربي المعاصر و تأصيل مناهج قراءته - عليه أن يعيد النظر في اختيار مناهج مناسبة تؤسس لخطاب مشترك بين المرسل و المتلقي من منطلق أن هذا الخطاب النقدي يقوم على التلازم بين اللغة بوصفها أداة و الفكر بوصفه محتوى. يقتضي ذلك تأسيس خطاب نقدي ذي علاقة متلازمة مع الواقع الحياتي العربي و الواقع النصي الشعري، و ذلك من خلال تركيب تغيير طرائق البحث و اختيار أساليب منهجية جديدة مغايرة لما هو سائد... كل ذلك يتطلب وعياً متبصراً من أجل تركيب نموذج نقدي قرائي يراعي المزج بين ما هو لغوي و ما هو فكري، لأن الاعتداد بالخصائص الشكلية وحدها كحد للنص الأدبي غير كفيل لإبراز جماليته وقوة شعريته²⁵.

2. الهوامش:

- ² - هويدي، صالح، د.ت.النقد الأدبي الحديث قضاياها و مناهجها، ط، منشورات جامعة السابع من أفريل- ليبيا، ص:7-8
- ³ - المرجع نفسه، ص7
- ⁴ - تودوروف، 1986، نقد النقد، رواية تعلم، ط:2، ترجمة: سامي سويدان، دار الشؤون الثقافية- بغداد، ص:63
- ⁵ - الحميري، عبد الواسع، 2008، في الطريق إلى النص، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت، ص:13.
- ⁶ - ينظر: عبيد محمد صابر، و آخرون، 2008، أسرار الكتابة الإبداعية، عبد الرحمن الربيعي و النص المتعدد، ط1، عالم الكتب الحديث- إربد (الأردن)، جدارا للكتاب العالمي- عمان (الأردن)، ص:119.
- ⁷ - ينظر: معلا، طلال، 2006، النقد و الإبداع: رؤى في التشكيل. المركز العربي للفنون- الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، ص:28
- ⁸ - حجازي، سمير سعيد، 2006، نظريات معاصرة في تفسير الأدب، المركز العربي للفنون- الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، ص:28.
- ⁹ - نقلا عن: جفرسون آن ، و روبي ديفيد ، 1992، النظرية الأدبية الحديثة، ط1، ترجمة: سمير مسعود، منشورات وزارة الثقافة-دمشق، ص:32.
- ¹⁰ - ينظر: عبو، عبد القادر ، 2005، 2006، جمالية التلقي في الشعر الحداثي (رسالة دكتوراه)، إشراف بلقاسم هواري، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات والفنون-وهران، ص:88.
- ¹¹ - عبيد، محمد صابر، 2008، مرايا التخيل الشعري، ط1، عالم الكتب الحديث-إربد، جدارا للكتاب العالمي-عمان (الأردن)، ص:20.
- ¹² - المسدي عبد السلام و آخرون، 1986، الشعر و متغيرات المرحلة (ج1) حول الحداثة و حوار الأشكال الشعرية الجديدة. دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ص:13.
- ¹³ - تاويريت بشير ، 2009، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس، دراسة في المنطلقات و الأصول و المفاهيم ، ط1، عالم الكتب- القاهرة، ص:17.

- 14 - فضل، صلاح، 1987، إنتاج الدلالة الأدبية ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة، ص:303.
- 15 - المقالح، عبد العزيز، 1985، أزمة القصيدة العربية، مشروع تساؤل، دار الآداب، بيروت، ص:85.
- 16 - ينظر: المسدي، عبد السلام، 1989، النقد والحداثة، ط2، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، ص:16.
- 17 - ينظر: الدغمومي، محمد، 1999، نقد النقد و تنظير النقد العربي المعاصر، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، ص:290.
- 18 - ينظر: طلال، معلا، 2006، النقد و الإبداع : رؤى في التشكيل، إدارة الفنون، المركز العربي للفنون، الشارقة، الإمارات العربية، ص:219.
- 19 - سدونك، هـ. قيردا، 1986، مفاهيم الأدب بوصفها أطرا للإدراك النقدي، ترجمة: حسن البنا عز الدين، مجلة "فصول" جماليات الإبداع و التغيير الثقافي (ج1)، المجلد6، ع:3، ص:35.
- 20 - الحربي، فرحان بدري، 2003، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع - بيروت، ص:12.
- 21 - فضل، صلاح، 1992، بلاغة الخطاب و علم النص (سلسلة علم المعرفة)، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب - الكويت، ع: 164، ص:18.
- 22 - أبو جهجة، خليل ذياب، "الحداثة الشعرية العربية" بين الإبداع و التنظير و النقد، ص:295.
- 23 - فضل، صلاح، إنتاج الدلالة المرئية، ص:33.
- 24 - خمري، حسين، 2011، سرديات النقد، في تحليل آليات الخطاب النقدي المعاصر ط1، منشورات الاختلاف (الجزائر) دار الأمان (الرباط)، ص: 19-20.
- 25 - مجلة اللغة العربية، السادسي الثاني: 2012، المجلس الأعلى للغة العربية - الجزائر 14 ع: 29.

5. المصادر والمراجع:

1. أبو جهجة، خليل ذياب، "الحداثة الشعرية العربية" بين الإبداع و التنظير و النقد، ص:295.
2. تاويريت بشير، 2009، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس، دراسة في المنطلقات و الأصول و المفاهيم، ط1، عالم الكتب - القاهرة.
3. تودوروف، 1986، نقد النقد، رواية تعلم، ط:2، ترجمة: سامي سويدان، دار الشؤون الثقافية - بغداد.
4. جفرسون آن، و روبي ديفيد، 1992، النظرية الأدبية الحديثة، ط1، ترجمة: سمير مسعود، منشورات وزارة الثقافة - دمشق.

5. حجازي، سمير سعيد، 2006، نظريات معاصرة في تفسير الأدب، المركز العربي للفنون- الشارقة (الإمارات العربية المتحدة).
6. الحربي، فرحان بدري، 2003، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع-بيروت.
7. الحميري، عبد الواسع، 2008، في الطريق إلى النص، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت.
8. مخري، حسين، 2011، سرديات النقد، في تحليل آليات الخطاب النقدي المعاصر ط1، منشورات الاختلاف (الجزائر) دار الأمان (الرباط).
9. الدغمومي، محمد، 1999، نقد النقد و تنظير النقد العربي المعاصر، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.
10. سدونك، هـ. قيردا، 1986، مفاهيم الأدب بوصفها أطرا للإدراك النقدي، ترجمة: حسن البنا عز الدين، مجلة "فضول" جماليات الإبداع و التغيير الثقافي (ج1)، المجلد6، ع:3.
11. طلال، معلا، 2006، النقد و الإبداع : رؤى في التشكيل، إدارة الفنون، المركز العربي للفنون، الشارقة، الإمارات العربية.
12. عبو، عبد القادر ، 2005، 2006، جمالية التلقي في الشعر الحداثي (رسالة دكتوراه)، إشراف بلقاسم هوارى، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات والفنون-وهران.
13. عبيد محمد صابر، و آخرون، 2008، أسرار الكتابة الإبداعية، عبد الرحمن الربيعي و النص المتعدد، ط1، عالم الكتب الحديث- إربد (الأردن)، جدارا للكتاب العالمي- عمان (الأردن).
14. عبيد، محمد صابر، 2008، مرايا التخيل الشعري، ط1، عالم الكتب الحديث-إربد، جدارا للكتاب العالمي-عمان (الأردن).
15. فضل، صلاح، 1987، إنتاج الدلالة الأدبية ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع- القاهرة.
16. فضل، صلاح، 1992، بلاغة الخطاب و علم النص (سلسلة علم المعرفة)، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب- الكويت، ع: 164.
17. مجلة اللغة العربية، السداسي الثاني: 2012، المجلس الأعلى للغة العربية-الجزائر 14 ع: 29.
18. المسدي عبد السلام و آخرون، 1986، الشعر و متغيرات المرحلة (ج1) حول الحداثة و حوار الأشكال الشعرية الجديدة. دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد.

19. المسدي، عبد السلام، 1989، النقد والحداثة، ط2، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت.
20. معلا، طلال، 2006، النقد و الإبداع: رؤى في التشكيل. المركز العربي للفنون - الشارقة (الإمارات العربية المتحدة).
21. المقالح، عبد العزيز، 1985، أزمة القصيدة العربية، مشروع تساؤل، دار الآداب، بيروت.
22. هويدي، صالح، د.ت. النقد الأدبي الحديث قضاياها و مناهجها، ط، منشورات جامعة السابع من أفريل - ليبيا.